تطور العربية رهن بتطوير الفكر العلمي عند العرب

ليس في العربية الآن ما يسد حاجة الباحث

الأستاذ عبد الرزاق محي الدين

رئيس المجمع العلمي العراقي (بغداد)

قبل الاجابة على السؤال الاول أود ان استوضح ماذا يراد من كلمة « العالم » ؟ اهو العالم العربي ام العالم جملة ؟

فان يكن الثاني (وهو ما يقتضيه اطلاق كلمة «العالم») فالجواب عليه :

ان انتشار اي لغة انتشارا عالميا يتوقف على أمور كثيرة ، يرتبط اهمها بمركز الامة العلمي والحضاري ، وبمنزلتها الدولية ، وباستشعار امم العالم ضرورة تعلم لغتها للتعامل معها بفهم ما عندها ، والتفاهم معها ، اما للانتفاع بما لديها من علم او فن او الاحتراس من خطرها وسطوتها .

وكون تعلم اللغة وتيسير انتشارها — ومنها العربية — صعبا او ميسرا يأتي في المرحلة الثانية من الاسباب . فاللغة العربية يوم كانت لها دولة ذات شأن وتأثير في العالم تعلمتها امم مختلفة ، وكتبت وتحدثت بها شعوب بعيدة وقريبة ، ولم يحل بينها وبين ذلك صعوبتها وبعدها عنها ، هذا لمكان سطوتها وسمو دعوتها ، وتأثر الامم بدينها .

واذن ، فبسبيل انتشار العربية بين امم العالم ان تعود الامة الناطقة بها ذات شأن عالمي يغري الامم الاخرى بتعلمها ، او يضطرها الى تعلمها . وهذا فيما اتوقع واقع مقبل قريبا ان شاء الله .

واذا كان المقصود من كلمة « العالم » العالم العربي وهو ما اظنه مقصودا في السؤال ومن اللغة العربية « الفصحى المعربة من لهجاتها » فأهم المشاكل في نظري ثلاثة :

1 — الاختلاف القائم بين لغة البيت والسوق والحديث الدارج من جهة وبين لغة الكتابة والخطابة من جهة اخرى . فما دام الحديث الدارج يجري بلهجة غير معربة ، وبمفردات يكثر فيها المحرف والهجين فسيظل الفرد العربي مواجها لصعوبة تعلم الفصحى المعربة وشاعرا بثقل تعلمها .

ان اختلاف اللهجات الناشئة من ام واحدة امر تقتضيه طبيعة كل لغة تتسع او تتباعد اقطارها ، ويستحيل بذلك الغاء جملة الفوارق مهما بذل من جهد ، ولكن وحدة الكتاب المدرسي في التعليم ووحدة وسائل الاعلام الاخرى ستمكن — دون شك — من تقارب اللهجات ، وتخفيف الفوارق بينها ، وستساعد بمرور الايام على ايلاف الفصحى المعربة .

وبمحض المقارنة بين ما كان عليه الفرد العربي قبل خمسين عاما وبين ما هو عليه الآن نشهد اللهجات العربية المختلفة وقد اخذت تلتقي على كثير من المفردات والتعابير حتى في الاوساط العامية .

2 — كتابة العربية : وتبدو المشكلة في ضبط حروف المفردة . ذلك ان القارىء المبتدىء والشادي لا يجد لحركة الحرف اداة مكتوبة ضمن الكلمة المكتوبة بحيث ينطقها مضبوطة بتوجيه من الحركة — كما هو الحال في اللغات الاوربية — ولذلك فالقارىء مضطر ان يهتدي الى حركة غير مكتوبة ، فيتردد بين الحركات المختلفة للحرف .

والحل الضروري في رأيي ان يهتدي الى طريقة تكتب فيها الحركات ضمن حروف الكلمة وبذلك

يزول كثير من غلط النطق ، وييسر حفظ المفـــردة بشكلها الصحيح .

انه بذلك قد تشوه صورة الخط العربي المألوف، ويباعد على وجه اليقين بيننا وبين المأثور مـــن مخطوطاتنا ومطبوعاتنا، الا ان علاج هذه المشكلـة المستعصية يحتم علينا قبول ذلك ، ويفرض علينـا التنازل عن بعض المزايا التي نجتنيها الآن مـــن المحافظة على جمال الخط ومن الانتفاع بالآثـــار المخطوطـة .

على انه يمكن اعادة طبع المطبوع قديما بالصورة الخطية الجديدة ، وبذلك نتجنب خسارة المأثور .

علينا أن نوازن بين امرين : التيسير لمشكلـة قائمة تتصل باجيالنا المعاصرة والقادمة ، ومزيـة جمالية وآثارية لا يستشعرها الا المعاصرون . لقـد اختلف شكل الخط العربي مـرات متعددة عبـر التاريخ ، ولابد ان يكون قد رافق كل تغيير مـوات لبعض المزايا الجمالية والآثارية الا ان ذلك لم يوقف حركة التغيير حيث وجدت له ضرورة ، بل لـم نستشعر انه حصل على اثرذلككثير اسى او كبيرضجة بل لعلنا استشعرنا من الآثار ما يؤكد الارتيـاح للتغييرات التي حدثت بما استحدثت من صـور جماليـة جديـدة .

3 — مشكلة الاعـراب — حركة الآخر —

تبقى بعد هذا حركة الاعراب القائمة على آخر الكلمة فان الاهتداء اليها من العرب الخلص الاوائل امر يستدعي العجب ، ويعني فهما وطبعا خاصا مـا تزال الحيرة تراود الباحثين بشأنه . وليس لدينـا من وسيلة الآن للاهتداء الى ذلك الا تعلم « النحـو العربي » ولكن تعلم النحو امر يتطلب جهـدا شاقا وانصرافا جديـا ربمـا يعادل تعلم جملة علوم .

وفى رايي أن تيسير ذلك يكون بالاعتماد علـى الاكثار من القراءة الصحيحة ، والدربة عليهـا مستعينين على ذلك بما قدمت بشأن رسم الكتابـة العربية ليستعان بحركة الآخـر المكتوبـة بهيئـة حرف على النطق رفعا ونصبا وجرا . وبالدربة على النطق الصحيح عن طريق شكل الحرف الآخر .

اما التجارب التي استحدثت فى تيسير النحـو بالغاء بعض ابوابه ، وبايجاز قسم منه فلم تكشـف حتى الآن عن نجاح ، وبقي ما كتب الاقدمون ضرورة لازمة لمن يريد تعلم النحـو العربي .

ان حدوث اللحن على السنة الناطقين العـرب ليس شيئا جديدا تميز به هذا العصر ، بل ليـس شيئا جديدا حتـى على العصور الاسلامية الاولى ، ولست اتحاشى ان ازعم ان اللحن قائم قيام اللغـة العربية ، لهذا لا اجـد سبيلا لامكانية التخلص من اللحـن .

ولست افسر الشذوذ والندور والقلة المأثورة عن العرب فى كتب النحو الا نوعا من الخروج علـى القواعد العامة ، نتيجة الجهل بها ، وعدم التاتـي لكل الناطقيـن ان يلتزموا القاعدة العامة .

اريد ان اخرج من هذا الى ان ظاهرة اللحـن ظاهرة طبيعية كان وسيظل الخلاص منها امـرا مستحيلا على مجموع افـراد الامة . وان التاريـخ الذي حدد فيه ظهور اللحن كان تحديدا لانتشـاره وكثرته لا لمجرد حدوثه .

4 — اللغة العربية من حيث الوفاء بالافكـار وبالخواطر العليا صالحة للتدريس الجامعي من دون شك ، وهي قد كانت كذلك يوم ترجمت اليها علـوم الاولين مما لم يكن لها عهد سابق به ، بل انهـا استطاعت بعد فترة ان تصبـح الوعاء الوحيـد للمعرفة والمصدر الذي رجعت اليه اللغات الاخرى .

والذين يخامرهم الشك فى صلاح اللغة العربية بصورتها القائمة للدراسة الجامعية يبررون شكهم بانقطاع العربية لفترة طويلة عن مواكبة النهضـة العلمية المعاصرة ، وبنشوء افكـار ومسميات لـم تعرفها العربية من قبل ، ولم تأخذ لهـا مكانـا فى مراجعهـا وكتبهـا .

الدراسة الجامعيـة تعني — فيما تعنـي — البحث والتتبع والرجوع الى المصـادر والامهـات **وليس فى العربية الآن ما يسـد حاجـة الاستـاذ الباحث والطالب المعقب ولهذا يذهب من يذهب الى عدم صلاح اللغة العربية** بصورتها الحاضـرة الـى الدراسـة الجامعيـة .

والاعتراف بهذا الواقع لابد منـه ، وانكاره لا ينفع العربية ولا يقدمها او يجعل منها لغة تفـي بمتطلبات العصر بما جد فيه من علوم وفنـون .

ولكن الاعتراف بهذا الواقـع شيء والرضـا عنه والسكوت عليه شيء آخـر .

انقيم على هذا الواقع ونقره ونسترسل معـه الى ان تصبح لغتنا لغة سوق ومنـزل ام نعمل علـى

تغيير هذا الواقـع ، وننتقل بلغتنا الى ان تكـون لغـة علـم ؟

ان عجز اللغة يعني عجز اهلها والناطقيـن بها أن يبلغوا درجة الوفاء بالاغراض العلمية وبهـذا تلقى التبعة عليهم لا على اللغة . **ليست لغة الامـة الا الصورة التعبيرية لما يجول فى افكار ابنائها** ، ولما يدخل فى نطاق محصول المعرفة عندهم ، وليس بامكان اي لغة أن تكون شيئا غير هـذا ، وسـواء اكانت بالعربية مرونـة وسعة ووفاء بالاغراض الجامعيـة ام لم يكن ، فان ما عليه حال ابنائها من العلم هو الذي يمكنها من الوفـاء او يقصر بها عن الوفـاء .

ورأيي فى المسألـة ما يلـي : ــ

ا) فى الانسانيـات :

فى الفترة المعاصرة وبعد ترجمة كثير من الآثار الانسانية الاجنبية، وقيام جامعات عربية كثيرة يدرس فيها اساتذة عرب تخصصوا فى علوم وفنـون مختلفة ، وقدروا على نقل الآراء والافكار من لغاتهـا الاصلية الى اللغة العربية احسب أن **تدريس العلوم الانسانية باللغة العربية امر ممكـن** مـن الناحيـة العلمية وامر واجب من الناحية القومية هذا مـع الاستمرار على الانتفاع باللغة الاجنبية والرجوع اليها كلمـا اقتضت ضرورة .

ب) فـي العلـوم :

أما فى العلوم البحتة فبمـا انه لم يكتب لهـا فى العربية كتب امهات ولم يترجـم فيها الى العربيـة منها قسط كاف يفي بالبحث العلمي **فان التدريس باللغة الاجنبية شيء لازم ، مع الحرص علـى تعريب العربية لها وتداخلها** ، بتاليف كتب ومترجمات توضع تحـت يد الطلاب وفى المكتبات تمهيـدا لاقامة مكتبة عربيـة فى هذه العلـوم .

مشكلـة المصطلـح :

وفيما يتصل بالمصطلح العلمي فان مشكلتـه تأتي من ناحيتيـن :

ا) عدم كفاية المصطلحات العلمية الموجـودة الآن فى اللغة العربية لسد حاجات ما جد مـن آراء ومسميات . وسد هذه الحاجة ضروي لجعل العربية صالحة للتدريس فى الجامعات وبخاصـة فى العلوم . وسبيل ذلك نهضة جدية تشارك فيها المجامع العلمية والمجامع اللغوية فيعمد المتخصصون فى المجامـع العلمية الى وضع المصطلحات كل بحسب اختصاصه وكما يراه انسب ، ثم تعرض على المجامع اللغويـة للاستئثار والمناقشة والتنسيق والانتهاء الى افضل المصطلحات واكثرهـا مطابقة واتساقا مع الصيـغ العربية ، ثم تعمم تلك المصطلحات على الدوائـر العلمية والمعاهد والجامعات شيء من هذا يحـدث الآن ، لكن نشاطا اكبر وعملا اوسع لابد أن يعمل فى هذا البـاب .

ب) اختلاف المصطلحات بين عالم وآخر وجامعة واخرى ، وعلم وسواه ، وقطر وقطر الامر الـذي يحدث البلبلة فى المراد من هذه المعاني ، وهذه ظاهرة متوقعة فى هذه الفترة من نهضتنـا العلميـة ، اذ لا تستقر المصطلحات وتأخذ مكانها الا بعد فترة مـن الزمن ، وبعد تدافع بينها الى ان يأخذ كل مصطلـح مستقره فى كتب الباحثيـن . ولو نظرنا الى مصطلحات العلوم والفنـون التي نشـأت فى القـرن الثانـي الهجري واوائل النهضة العربية لرأينا انها لم تأخـذ مكانها من الاستقرار والثبات الا فى القـرن الرابع .

كل ما نستطيع عمله الآن ان نختصر الوقـت غاية ما يمكن لان تأخذ المصطلحات العلمية مكانهـا من الاستقـرار .